

تطور العلوم الاجتماعية

للاستاذ محمد جلال عبد الحميد

يتبين من تاريخ علم الاجتماع أنه لا يزال في دور التكوين . ولعل سبب ذلك يرجع إلى ما يشوبه من نظريات فلسفية أفسدت عليه استقامة عوده ، وإلى عدم استقرار فروعه وتحديد غايتها واستخلاص طرقها

فقرى تاريخ الأديان مثلاً تتنازع تيارات كثيرة ؛ وعلى حسب اختلاف اتجاه تلك التيارات وقوتها تختلف طريقة البحث ونتيجته . وكثير من مؤرخي الأديان الكبرى كاليهودية والنصرانية والإسلام يرون أن للأديان منشأ واحداً لأنها جميعاً تعترف بوجود قوة خالقة واحدة لهذا الكون يشعر بوجودها الإنسان حين النظر في أمر تكوينه والبحث عن آثار تلك القوة المثلة في وجدانه . أخذ هؤلاء العلماء يردون ويفسرون جميع الظواهر الكونية والاجتماعية والنفسية إلى أصل واحد يحيط بها ويبرعها بأسلوب لا يأنه الباطل ولا يتطرق إليه الشك ، هذا الأصل هو الكتب المقدسة وآثار الأنبياء . من أجل ذلك توفرت جهود المؤرخين على جمع وترتيب شتات هذه الكتب وتلك الآثار ، وانكبوا على دراستها ليستخرجوا منها أسباب الحوادث والوقائع التاريخية مفسرين كل هذا حسب ما لديهم من اعتقادات راسخة وإيمان ثابت في صحة روايات ووقائع تلك الكتب والأحاديث^(١) وهناك فريق آخر — وهم الفلاسفة^(٢) ومن إليهم — يرى

(١) من الصعب أن نحصى هنا عدد هؤلاء المؤرخين لكثرتهم ولكن نذكر أهمهم Ad. Lods ; Israel, des Origines au Milieu du VIII^e siècle, col. de L'évolution de L'humanité. Paris. Ch. Ogniebert; Jesus, Col. de L'évolution de L'humanité, Paris 1933

L. Goldziher; Mohammedanische Studien; Halle 1890
P. W. Schmidt; Origine et Evolution de la religion; Tra. Française, Grasset 1931.

أحمد أمين بك « غير الإسلام » و « ضحى الإسلام »

(٢) مثل هنري برجسن H. Bergson وجورج فريزر G. Frazer وتيلر Taylor وماكس ملر M. Muller وغيرهم

أن نشأة الأديان ترجع في أصلها إلى عوامل نفسية لها قطر على الإنسان من حب ولسا تكون فيه من غرائز ، وإن هذين العاملين يتنازعان القوى الروحية للإنسان ، وعلى قدر تطلب أحد هذين العاملين على الآخر تتعين طبيعة الدين وقوته . فالدين عند الأمم المحدودة المدنية مثلاً هو دين غريزي ، لأن أصله غريزة الخوف والتنازع على البقاء . وقد نعت « برجسن » بأنه دين خامد^(١) نخلوه من عناصر التطور والتجديد . وأما الأديان الكبيرة كاليهودية والنصرانية والإسلام والبرهية فإلها تصدر عن عاطفة الحب التي يتميز بها الصوفي في تلك الأديان . ومن أجل ذلك اعتبر موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام أنبياء لتميزهم بحبهم الخالص للعالم كله ، وتقانيهم في العمل من أجل سعادته ، وقدرتهم على الإشراف والتقصص في قوة الكون ذاتها ، ليشلوا في أجل مظاهرها وأتم معانيها من خلق وتجديد ، وهذه هي الأديان (المتطورة)^(٢)

ولكن علماء الاجتماع لم يرضهم هذا الرأي أو ذاك ، لأن العوامل النفسية والاعتقاد بوجود قوة واحدة خالقة ومبدية لهذا الكون لا يمكن اعتبارها أساساً ومصدراً للأديان ، فهناك أديان كبيرة كالبرهية والبوذية — نشأت وانتشرت ولم تول تم جزءاً كبيراً من العالم ، على رغم أنها خالية من مثل هذا الاعتقاد . ونرى أيضاً أن هناك أدياناً متعددة عند الأمم المحدودة المدنية — كالقبائل الاسترالية والزنجية وغيرها — لها أوضاع وأسس تشبه في كثير من ظواهرها الأديان الكبيرة ، لأنها قادرة على التمييز بين الحلال والحرام وأمر القيام بعبادات منظمة ؛ وهذه الأديان أيضاً لم تهم ولم تتحدد بتثل ما تنقيد به النصرانية أو الإسلام من ضرورة الشعور بوجود هذه القوة الداتية ؛ وكما أنها لا تشعر الفرد بأن هناك قوة روحية كامنة في الإنسان وخارقة للعادة تدفع الزنجي أو الاسترالي إلى حب غير بني جنسه كما يعمل الصوفي في اليهودية أو النصرانية . فالزنجي أو الاسترالي يتقرب لأبناء جنسه ويفنى فيهم لأنه لا يرى سواهم حوله ، فقييلته هي كل شيء

(١) لتعبر عن كلمة Statique الواردة في كتابه Les Deux Sources de la Morale et de la Religion; Alcan, Paris 1932

(٢) لتعبر عن كلمة Dynamique الواردة في كتاب برجسن المؤلف المذكور .

وهناك فريق آخر من العلماء^(١) يقولون إن غاية علم الجغرافيا البشرية هي دراسة العلاقة بين الإنسان وبين البيئة الجغرافية التي يسكنها وأثر كل منهما في الآخر وتحديد ما يتركه هذا الأثر في التكوين الاجتماعي . ويظهر أن هذا هو الرأي الأخير الذي استقر عليه عامة الجغرافيين والاجتماعيين

وأما علم الأنثولوجيا^(٢) فإنه لم ينبج أيضاً من تلك العقبات الموضوعية عند نشأته ، فقد اعتبره « كرتاج » أحد فروع الزولوجيا وجاء بعده « بروكا » Broca وتلاميذه « أرنست هايم » E. Hamy « وفرنو » Verneau فتوسعوا في فهم هذا العلم ووضعوا أسسه المختلفة ، فضموا إليه دراسة اللغويات واللغات ، وتسابت الدول بعد ذلك في إدخال تعديلات وزيادات في مناهجه وأسسها كل منها حسب فهمها له والغاية التي ترجوها منه ؛ فبعض هذه الدول كان يتخذ أداة صالحة للاستعمال ، وبعضها الآخر يتناوله على أنه علم قائم بذاته له تجاربه وأوضاعه ؛ وعنى به كثيراً في الفترة الأخيرة في ألمانيا وإنجلترا وفرنسا وأمريكا^(٣)

وهكذا حال بقية العلوم الاجتماعية الأخرى مثل علم النفس الاجتماعي وعلم الاقتصاد الاجتماعي وغيرها لم تكن أثبت وأدعى للعلمانية فيما سبق من العلوم ، لأن ميادين تجاربها لم تتعين إلا قليلاً ولم يتنوع العمل فيها إلا يسيراً

وبرغم هذا فإن تطور علم الاجتماع وبلوغه الدرجة التي يقف عندها الآن مدين في كثير منه إلى تلك العلوم ، لأنها عملت

(١) أظن كتاب « الأرض والتطور البشري » لمؤلفه لوسيان فيفر Lucien Fevre كتاب « يكلودي والمناطق المحيطة بها » لمؤلفه ديمنجون A. Demingon

(٢) هذا الاصطلاح لم يقره العلماء إلا أخيراً ، وذلك بعد أن كثرت استعماله لدى الألمان

(٣) منذ عام ١٨٦٩ ، والأمريكان منذ عام ١٨٧٩ . وأما كلمة أنثروبولوجي Anthropologie فتأصلها كثيراً ؛ غير أن العلماء الإنجليز ظلوا يستعملونها حتى الآن . والفرنسيون هم أول من فكروا في تكوين هذا العلم ، فأنشأوا له كرسياً عاماً في جامعة باريس سنة ١٨٠٦ E. Quatrefages وألقى أول درس في هذا العلم يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٠٦ أظن دائرة المعارف الفرنسية T. VII Encyclopédie Française L'espèce Humaine Paris 1936 : 1. 7. 061 —

كذلك حين يقدس هذا الزنجي معبوده « أي توتيه » ويفنى فيه بحبه له ، يفعل ذلك ، بل وأكثر من ذلك ، لأن معبوده هو رمز قبيلته ، وأن الفرد والقبيلة هما وحدة لا تتجزأ . وأما الصوفي فحبه الشامل للكون وتقانيه في القوة الخاققة له ، لأنه مجبر على الإحساس — دون وعي لحالته — بهذا الشعور ، لأن الجماعة التي يعيش فيها تلهمه ضرورة حب غيره من عامة البشر ، بل وحب الكون عامة ، لأن هذه الجماعة هي خلاصة العناصر المادية والروحية للإنسانية كلها ، ولأنها رمز قوة الكون ، لذلك كان هم الصوفي أن يسمى ليفنى في هذه القوة ذاتها

من أجل ذلك يقرر علماء الاجتماع أنه إذا فرض واعتبرت الجماعة البشرية مصدر الأديان مهما اختلفت عصورها وتباينت بيناتها فقد يكون في ذلك حالة أدعى للطمأنينة وأدنى للصواب حين يعمل الإنسان لكشف حقيقة الأديان وتحليلها إلى عناصرها الأساسية ، وفي هذا الاتجاه سار إميل دركيم^(١) Durkheim وتلاميذه بفرنسا

وهذه وإن كانت محاولة جريئة قد تهبط لنا مجالاً أوسع للبحث والتقيب عن أصل كثير من الظواهر الدينية ومعتقداتها وأساس إيماننا

ولم يكن حظ الجغرافيا البشرية أوفر من حظ علم تاريخ الأديان من حيث القدرة على استخلاص قوانينها العامة والاسترسال في تحقيقها . فكثير من الجغرافيين^(٢) يرون أن البيئة الاجتماعية — بما فيها من تنوع في النشاط المادي والروحي — هي نتيجة حتمية للتأثيرات والعوامل الطبيعية للمنطقة التي تشغلها تلك البيئة الاجتماعية ؛ فإذا أثبتت الأرض وعم خيرها وصلاح جوها شجعت الجماعة وكثرت نشاطها وعم فرحها وتنوعت ظواهرها الاجتماعية وتميزت عناصرها الجنسية

(١) أظن كتاب : Les Formes Elementaires de la vie Religieuse; Alcan, Paris 1912

(٢) مثل فيدال دي لابلاش Vidal de Lablache ورتزل Ratzel وكثير غيرهما من الجغرافيين في القرن التاسع عشر